

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ

مِنْ

أَضْوَاءِ الْبَيِّنَاتِ

تأليف

الشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار
ابن بكين الشنقيطي

إعداد

أ.د. سيد محمد ساداتي الشنقيطي
أستاذ الإعلام الإسلامي بكلية الدعوة
والإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

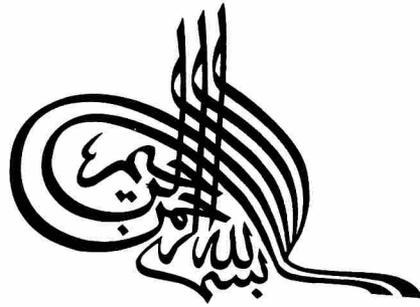
دار الهدى النبوي

مصر - المنصورة

دار الفضيحة

الرياض - السعودية

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ
مِنْ
أَضْوَاءِ الْبَيَانِ



حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

الناسِر

دار الهدى النبوي

مصر - المنصورة

دار الفضية

الرياض ١١٥٤٣ - ص.ب. ٥١١٤٢

تلفاكس ٢٣٣٣٠٦٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة مختصر الكتاب

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمد عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ﴾ [النساء: ١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإنه لما كان كتاب الله هو العروة الوثقى وحبل الله المتين وهو النور الذي يبدد ظلمات الكفر والجهل والمعصية والبدعة ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [١٥] يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُم سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة].

وكنت ممن من الله عليهم بمعايشة كتاب الله وإطالة التأمل فيه ومحاولة الغوص وراء معانيه العظيمة وأوامره وأحكامه الرشيدة مع رغبة صادقة في معرفة زواجره ونواهيها، وكنت في سبيل ذلك كثير المداومة على مطالعة كتب التفسير التي ألفها علماؤنا الأجلاء الفضلاء. وكنت بالفطرة شديد الميل إلى الوقوف عند التفاسير التي ركزت على تفسير القرآن بالقرآن باعتباره أفضل أنواع التفسير وأجلها قدراً، وكنت وما زلت أتمنى أن يكون الاهتمام بهذا المنهج في التفسير هو ما تصرف فيه الأوقات، وما ينبغي أن يكون الشغل الشاغل لمن يتصدى لتفسير كتاب الله وبيان معانيه وجعلها في متناول عامة المسلمين دعوة لهم لتكون مستند حركتهم، ومرتكز عملهم كيما يسعدوا في العاجل والآجل، لذلك وجدتي مشدوداً إلى كتاب أحسبه فريداً من نوعه في هذا الباب لم تقع عيني على مثله هو (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لشيخنا بل شيخ الجيل الذي وجد فيه وشيخ من أتى بعده الإمام العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي ابن عمنا والمقدم فينا، وتأكد بعد المعاشية أن كثيراً من الناس قد لا يحسنون الغوص وراء معانيه ولا يجيدون السباحة في بحره الزاخر، لطول نفس الشيخ في العلوم التي حواها كتاب الله فوقفه الطويل عندها في مباحث متخصصة غاية ونهاية هي محل اهتمام من طلبة العلم الراسخين فيه حيث إن الشيخ رحمته الله كان يعلم يقيناً أن المستفيدين بالدرجة الأولى من الكتاب هم طلبة العلم، وكان رحمته الله لا يوزعه في طبعته الأولى إلا عليهم وبشرط أن يكونوا قد حصلوا على الأجزاء الأولى منه لأنه كان قد أفاض في

الكشف عن منهجه في مقدمة الجزء الأول من الكتاب، كما كان كثير الإحالة على الأجزاء الأخرى التي تقدمت لكل ما سبق ورغبة في جعل هذا التفسير الجليل في متناول عامة المسلمين من خلال التركيز على بيان معاني الآيات التي فسرها الشيخ وفق منهجه سواء كان التفسير بنصوص القرآن أو الأقوال اللغوية والشواهد الشعرية التي تجلي حقيقة معنى الآية مع إيضاح رأي الشيخ في المسائل التي تتعلق بالموضوعات ذات العلاقة في الآية والاقتصار على ذلك باعتباره أبرز ما يحتاج إليه عامة الناس وقد اخترت له اسماً يطابق حقيقته ويتفق مع ما وضعه الشيخ اسماً لأصل الكتاب وهو «تفسير القرآن بالقرآن من أضواء البيان» ولا يفوتني هنا التأكيد على أنني لم أكن لأجرأ على مثل هذا العمل لولا ما لمستته من تشجيع أخي الدكتور محمد المختار بن محمد الأمين ابن الشيخ بعد أن بينت له شدة اهتمامي بتيسير انتفاع عامة الناس بالكتاب إذ إنني حتى بعد موافقته ترددت كثيراً وأمضيت أكثر من سنتين في التردد بعدها شرح الله صدري لهذا العمل الذي أسأل الله أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم نافعاً للمسلمين.

وهنا ملاحظة قبل اختتام هذه المقدمة تتمثل في أن الشيخ رحمته الله لم يفسر كل آيات القرآن وإنما اقتصر تفسيره في كل سورة على الآيات التي فسرها آيات أخرى من كتاب الله وربما كان غياب إدراك هذه الحقيقة مما حال بين الكثيرين من عامة الناس وبين الانتفاع به بصورة مثلى.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أ. د. سيد بن محمد ساداتي الشنقيطي



مقدمة المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، إله الأولين والآخرين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، الذي اصطفاه وجعله سيد ولد آدم أجمعين. الحمد لله الذي أنزل على خاتم الرسل والأنبياء أكمل كتاب، فكشف به ظلمات الجهل وأسباب العذاب، وأماط به عن نفائس العلوم وذخائرها الحجاب، وكشف به عن حقائق الدين وأسراره ومحاسنه النقاب، وأخلص به العبادة للعزیز الوهاب، وفتح به لنيل مآرب الدارين الباب، وأغلق باتباعه والعمل به دون الشر جميع الأبواب، تحيى بوابل علومه القلوب النيرة أعظم مما تحيى الأرض بوابل السحاب، يتميز بتدبر آياته الخطأ من الصواب، والقشور من اللباب، وتجل ألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره عن الوصمة والعباب ﴿ كَتَبَ آزَلَنَّهُ إِلَيْكَ مِزْرًا لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلَيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩]، وعد الله متبعه ما هو خير وأبقى، وقال فيه: ﴿ فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ [طه: ١٢٣].

وأوعد المعرضين عنه من جميع الأحزاب بالنار، قال: ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِءَ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود: ١٧]، وهو عام للكفار، وشبه بالحرر المعرضين عنه من الكفرة، قال: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ [٤٩] كَانَهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ [المدثر]، فيكفي المعرض عنه أنه حمار، وأنه من حمير النار.

وبين تعالى أن المعرض عنه يحمل يوم القيامة ما لا يستطيع له حملاً، قال: ﴿ وَقَدْ ءَايَنَّاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٦﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿٩٧﴾ خَلْدَيْنِ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [طه]، فتح الله تعالى به قلباً غلفاً، وأعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقال فيه: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [١٢٤] [طه]، لا تنفسي عجائبه ولا يخلق على طول التكرار، ما تعاقب الليل والنهار، رفع الله تعالى به قوماً ووضع به آخرين، وقال: ﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبْ يَهْدِنَا اللَّهُ يَوْمَ الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القلم]، وهو آخر الكتب السماوية عهداً برب العالمين، فكل الشر في الإعراض عنه، وكل الخير في الإقبال عليه، فطوبى لمن كان حجة له، وويل لمن كان حجة عليه ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْءٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٤]، ففيه للمطيع أعظم وعد، وللعاصي أشد وعيد.

ومع هذا كله، فإن أكثر المنتسبين للإسلام اليوم في أقطار الدنيا معرضون عن التدبر في آياته، غير مكترئين بقول من خلقهم: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد]، لا يتأدبون بأدابه، ولا يتخلقون بما فيه من مكارم الأخلاق يطلبون الأحكام في التشريعات الضالة المخالفة له، غير مكترئين بقول ربهم: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]. وقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا إِلَى الظَّلْغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]، بل المتأدب بأداب القرآن المتخلق بما فيه من مكارم الأخلاق محتقر مغموز فيه عند جلهم إلا من عصمه الله فهم يحقرونه واحتقاره لهم أشد كما قال الشافعي رحمته الله:

فهذا زاهد في قرب هذا وهذا فيه أزهد منه فيه

وياك يا أخي ثم إياك، أن يزهديك في كتاب الله تعالى كثرة الزاهدين فيه، ولا كثرة المحقرين لمن يعمل به ويدعو إليه، واعلم أنّ العاقل الكيس الحكيم لا يكثر بانتقاد المجانين، واسمع قول الأديب الكبير محمد بن حنبل الشنقيطي الحسني رحمته الله:

لا تسؤ بالعلم ظنا يا فتى	إنّ سوء الظن بالعلم عطب
لا يزهديك أخي في العلم أنّ	غمر الجهال أرباب الأدب
إن تر العالم نضوا مرملا	صفر كف لم يساعده سبب
وتر الجاهل قد حاز الغنى	محرز المأمول من كل أرب
قد تجوع الأسد في آجامها	والذئب الغيب تعتام القتب
جرع النفس على تحصيله	مضض المرين ذل وسغب
لا يهاب الشوك قطاف الجنى	وإبار النحل مشتار الضرب

أما بعد: فإنّنا لما عرفنا إعراض أكثر المتسمين باسم المسلمين اليوم عن كتاب ربهم ونبذهم له وراء ظهورهم، وعدم رغبتهم في وعده، وعدم خوفهم من وعيده، علمنا أنّ ذلك مما يعين على من أعطاه الله علماً بكتابه أن يجعل همته في خدمته من بيان معانيه، وإظهار محاسنه، وإزالة الإشكال عما أشكل منه، وبيان أحكامه، والدعوة إلى العمل به، وترك كل ما يخالفه.

واعلم أنّ السنة كلها تدرج في آية واحدة من بحره الزاخر، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، ومن أهم المقاصد في ذلك، هذا الكتاب المبارك الذي هذه ترجمته، واعلم أنّ من أهم المقصود بتأليفه أمران:

أحدهما: بيان القرآن بالقرآن، لإجماع العلماء على أنّ أشرف أنواع التفسير وأجلها تفسير كتاب الله بكتاب الله، إذ لا أحد أعلم بمعنى كلام الله - جل وعلا - من الله - جل وعلا -، وقد التزمنا أن لا نبين القرآن إلا بقراءة سبعة، سواء كانت قراءة أخرى في الآية المبينة نفسها، أو آية أخرى غيرها، ولا نعتد على البيان بالقراءات

الشاذة وربما ذكرنا القراءة الشاذة استشهداً للبيان بقراءة سبعية، وقراءة أبي جعفر ويعقوب وخلف ليست من الشاذ عندنا ولا عند المحققين من أهل العلم بالقراءات.

وثانيهما: بيان الأحكام الفقهية في جميع الآيات المبينة بالفتح في هذا الكتاب، فإننا نبين ما فيها من الأحكام، وأدلتها من السنة، وأقوال العلماء في ذلك، ونرجح ما ظهر لنا أنه الراجح بالدليل من غير تعصب لمذهب معين، ولا لقول قائل معين؛ لأننا ننظر إلى ذات القول لا إلى قائله؛ لأن كل كلام فيه مقبول ومردود، إلا كلامه ﷺ، ومعلوم أن الحق حق ولو كان قائله حقيراً.

ألا ترى أنّ ملكة سبأ في حال كونها تسجد للشمس من دون الله هي وقومها لما قالت كلاماً حقاً صدقها الله فيه، ولم يكن كفرها مانعاً من تصديقها في الحق الذي قالته، وذلك في قولها فيما ذكر الله عنها: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا آذَنًا﴾ [النمل: ٣٤]، فقد قال تعالى مصدقاً لها في قولها: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤]، وقد قال الشاعر:

لا تحقرن الرأي وهو موافق حكم الصواب إذا أتى من ناقص
فالدر وهو أعز شيء يقتنى ما حط قيمته هوان الغائص

وقد تضمن هذا الكتاب أموراً زائدة على ذلك، كتحقيق بعض المسائل اللغوية وما يحتاج إليه من صرف وإعراب، والاستشهاد بشعر العرب وتحقيق ما يحتاج إليه من المسائل الأصولية والكلام على أسانيد الأحاديث، كما ستراه إن شاء الله تعالى.

واعلم أنّ أنواع البيان المذكورة في هذا الكتاب المبارك كثيرة جداً. وقد أردنا أن نذكر في هذه الترجمة جملأً من ذلك ليعلم بها الناظر كثرة ما تضمنه هذا الكتاب المبارك من أنواع بيان القرآن بالقرآن، ويكون على بصيرة في الجملة من فائدته قبل الوقوف على جميع ما فيه.

وبعد ذلك نذكر مقدمة في تعريف الإجمال والبيان، وما يحتاج إليه من مسائلها من غير تطويل في ذلك، ثم نشرع - إن شاء الله - في المقصود مرتباً على ترتيب سور القرآن العظيم، ونرجو من الله الكريم على ما فينا أن نكون داخلين في قوله ﷺ، الثابت في صحيح البخاري من حديث أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» وفي رواية له: «إِنَّ أَفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» كما نرجوه تعالى أن يوفقنا للعمل بما علمنا من كتابه، والتخلق بما فيه من المكارم، والتأديب بآدابه، وأن يعلمنا ما جهلنا، ويذكرنا ما نسينا منه، وأن يرزقنا إخلاص النية في جميع الأعمال، وأن يحفظنا بفضلته ورحمته من فساد القصد في الأعمال، إنه رحيم كريم.

اعلم - وفقني الله وإياك لما يحبه ويرضاه - أن من أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك بيان الإجمال الواقع بسبب اشتراك، سواء كان الاشتراك في اسم أو فعل أو حرف.

ومثال الإجمال بسبب الاشتراك في اسم قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ قُرُوءٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]؛ لأنّ القرء مشترك بين الطهر والحيض، وقد أشار تعالى إلى أن المراد بأقراء العدة الأطهار بقوله: ﴿فَطَلِقُوهُنَّ لِئَدَّتِيْنَ﴾ [الطلاق: ١]، فاللام للتوقيت ووقت الطلاق المأمور به فيه في الآية الطهر لا الحيض، وتدل له قرينة زيادة التاء في قوله: ﴿ثَلَاثَةٌ قُرُوءٌ﴾، لدلالاتها على تذكير المعدود وهو الأطهار، فلو أراد الحيضات لقال: ثلاث قروء بلا هاء؛ لأن العرب تقول: ثلاثة أطهار وثلاث حيضات. وسترى بعض الكلام على هذه المسألة في هذه الترجمة وتحقيق المقام فيها بأدلتها في سورة البقرة إن شاء الله تعالى.

ومن أمثلة الاشتراك في اسم قوله تعالى: ﴿وَلَيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]، فإنّ العتيق يطلق بالاشتراك على القديم، وعلى المعتق من الجبابة وعلى الكريم وكلها قيل به في الآية وتصريح الله بأنه أقدم البيوت التي وضعت للناس في قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦] الآية، يدل للأول.

ومثال الإجمال بسبب الاشتراك في فعل قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ [التكوير]، فإنه مشترك بين إقبال الليل وإداره، وقد جاءت آية تؤيد أن معناه في الآية أدبر وهي قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ﴾ [التكوير] و﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ [المدثر]، فكون عسعس في الآية بمعنى أدبر يطابق معنى آية المدثر هذه كما ترى، ولكن الغالب في القرآن أنه تعالى يقسم بالليل وظلامه إذا أقبل، وبالفجر وضيائه إذا أشرق، كقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ [الشمس] و﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَجَلَّى﴾ [الليل]. وقوله: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا﴾ [الشمس] و﴿وَاللَّيْلِ إِذَا بَغَشَّهَا﴾ [الشمس]. وقوله: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا سَجَّى﴾ [الضحى]، إلى غير ذلك من الآيات، والحمل على الغالب أولى وهذا هو اختيار ابن كثير وهو الظاهر خلافاً لابن جرير. وسترى إيضاح هذا المبحث إن شاء الله في سورة التكوير.

ومن أمثلة الاشتراك في فعل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، فإنه مشترك بين قولهم عدل به غيره إذا سواه به ومنه قول جرير:

أثعلبة الفوارس أم رباحاً
عدلت بهم طهية والخشابا

أي سويتهم بهم وبين قولهم: عدل بمعنى مال وصد ويدل للأول قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الأعراف: ١٧] إِذْ سَأَلْتُمُوهَا رَبَّ الْعَالَمِينَ [الأعراف: ١٧]. وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] الآية.

ومثال الإجمال بسبب الاشتراك في حرف قوله تعالى: ﴿حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً﴾ [البقرة: ٧]، فإنّ الواو في قوله: ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ﴾ محتملة للعطف على ما قبلها وللإستئناف، ولكنه تعالى بيّن في سورة الجاثية، أنّ قوله هنا: ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] معطوف ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، وأنّ قوله: ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً﴾ [البقرة: ٧] جملة مستأنفة مبتدأ وخبر، فيكون الختم على

القلوب والأسماع والغشاوة على خصوص الأبصار، والآية التي بين بها ذلك هي قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣]، وسترى في سورة البقرة، الجواب عن آية النحل إن شاء الله تعالى.

ومن أمثلة الاشتراك في حرف أيضاً الاشتراك في الواو من قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧]، فإنها محتملة للعطف فيكون الراسخون في العلم يعلمون تأويل المتشابهة ومحتملة للاستئناف، فيكون الله تعالى مستأثراً بعلمه دون خلقه، وفي الآية قرائن ترجح أنها للاستئناف أوضحها ابن قدامة في روضة الناظر قال: وفي الآية قرائن تدل على أن الله سبحانه وتعالى منفرد بعلم تأويل المتشابهة وأن الوقف الصحيح عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْأَلُكُمْ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]، لفظاً ومعنى، أما اللفظ فلأنه لو أراد عطف الراسخين لقال: ويقولون آمنا به بالواو، وأما المعنى فلأنه ذم مبتغي التأويل، ولو كان ذلك للراسخين معلوماً لكان مبتغيه ممدوحاً لا مذموماً؛ ولأن قولهم: آمنا يدل على نوع تفويض وتسليم لشيء لم يقفوا على معناه إلى آخره. وسترى تمامه وتفصيله إن شاء الله في سورة آل عمران.

ومن أمثلة الاشتراك في حرف قوله تعالى: ﴿فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ [المائدة: ٦]، فإن لفظة «من» مشتركة بين التبويض وابتداء الغاية، وقد قال الشافعي، وأحمد - رحمهما الله -: هي في هذه الآية الكريمة للتبويض، فاشتراطاً صعيدياً له غبار يعلق باليد، وقال مالك وأبو حنيفة - رحمهما الله -: هي لابتداء الغاية فلم يشترطاً ماله غبار، بل أجازا التيمم على الرمل والحجارة وقولهما أنسب؛ لأن قوله تعالى بعده: ﴿وَمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]، نكرة في سياق النفي زادت قبلها لفظة «من» لتوكيد العموم، والنكرة إذا كانت كذلك فهي نص صريح في شمول النفي لجميع أفراد الجنس والتكليف بخصوص ما له غبار لا يخلو من حرج؛ لأن كثيراً من بلاد الله لا يوجد فيها إلا الجبال أو الرمال، وسيأتي تحقيق هذا المبحث وإيضاحه بالسنة في سورة المائدة، إن شاء الله تعالى.

والمقصود في الترجمة مطلق المثال، ومن أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك بيان الإجمال الواقع بسبب إبهام في اسم جنس جمعاً كان أو مفرداً، أو اسم جمع أو صلة موصول أو معنى حرف، فمثال الإبهام في اسم جنس مجموع قوله تعالى: ﴿فَلَقَوْا آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ [البقرة: ٣٧]، فقد أبهمها هنا وذكرها في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [١٣٣] [الأعراف]، ومن أمثلته في اسم جنس مفرد قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧] الآية، فقد أبهمها هنا وبينها بقوله: ﴿وَيُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَىٰ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [١٥] ونمكن لهم في الْأَرْضِ وَيُرِي قُرُونَهُمْ وَهُمْ لَمْ يَحْذَرُوا﴾ [١٦] [القصص]، ومن

أمثلته قوله: ﴿وَلَكِنَّ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]، فقد بيّنها بقوله: ﴿وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [السجدة: ١٣] الآية، ونحوها من الآيات. ومن أمثلته قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، فقد بيّن عهده بقوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة: ١٢] وبين عهدهم بقوله: ﴿لَأُكْفِرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [المائدة: ١٢] الآية، ومن أمثلته قوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]؛ لأن الأشد يتناول البلوغ ويتناول ثلاثين سنة، وأربعين، وستين وغير ذلك؛ كما قيل فيه بكل ذلك ومن إطلاقه على الخمسين قول سحيم بن وثيل.

أخو خمسين مجتمع أشدى ونجذني مداورة الشؤون

ولكنَّ الله تعالى بيّن أنّ المراد به في شأن اليتيم بلوغ النكاح بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٦]، ومثال الإجمال بسبب الإبهام في اسم جمع قوله تعالى في سورة الدخان: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَنَكِهِنَّ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدخان]، فالقوم: اسم جمع وقد أبهمه هنا وكذلك قوله في الأعراف: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَفُونَ مَشْرُوكَ الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٣٧] الآية، فإنه أبهم فيه القوم أيضاً ولكنه بيّن في سورة الشعراء، أنّ المراد بأولئك القوم بنو إسرائيل لقوله في القصة بعينها: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء] الآية . . . ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل]، فإنه أبهم هؤلاء القوم هنا ولكنه أشار إلى أنهم سبأ بقوله عن الهدهد مقررأ له: ﴿فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَبَرَأَ مِنْكُمُ ﴿٢٣﴾﴾ الآية [النمل: ٢٢ - ٢٣]، ومثال الإجمال بسبب الإبهام في صلة موصول قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١] فقد أبهم هنا هذا المتلو عليهم الذي هو صلة الموصول ولكنه بيّنه بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَأُمَّهَاتُ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [المائدة: ٣] الآية، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، فإنه أبهم هنا هؤلاء الذين أنعم عليهم، ولكنه بين المراد بهم بقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَتُخْفَىٰ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، فإنه هنا أبهم هذا الذي أخفاه ﷺ، في نفسه وأبداه الله، ولكنه أشار إلى أنّ المراد به زواجه زينب بنت جحش حيث أوحى إليه ذلك وهي في ذلك الوقت تحت زيد بن حارثة؛ لأن زواجه إياها هو الذي أبداه الله بقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وهذا هو التحقيق في معنى الآية الذي دل عليه القرآن وهو اللائق بجنابه ﷺ، وبه تعلم أنّ ما يقوله كثير من المفسرين من أنّ ما أخفاه في نفسه ﷺ، وأبداه الله وقوع زينب في قلبه ومحبته

لها وهي تحت زيد وأنها سمعته قال: «سبحان مقلب القلوب» إلى آخر القصة فإنه كله لا صحة له، والدليل عليه أن الله لم يبد من ذلك شيئاً مع أنه صرح بأنه مبدي ما أخفاه رسوله ﷺ. وسترى إن شاء الله تحقيق المقام في هذه المسألة في سورة الأحزاب.

ومثال الإبهام في معنى حرف قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [المنافقون: ١٠]، فإن لفظة «من» فيه للتبويض ولكن هذا البعض المدلول عليه بحرف التبويض المأمور بإنفاقه مبهم هنا، وقد بينه تعالى بقوله: ﴿وَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩] الآية، والعفو الزائد على الحاجة الضرورية، وسترى إيضاحه في أول سورة البقرة، إن شاء الله تعالى.

ومن أنواع البيان في هذا الكتاب المبارك بيان الإجمال الواقع بسبب احتمال في مفسر الضمير وهو كثير، ومن أمثله قوله تعالى في سورة العاديات: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات]، فإن الضمير يحتمل أن يكون عائداً إلى الإنسان، وأن يكون عائداً إلى رب الإنسان المذكور في قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات]، ولكن النظم الكريم يدل على عوده إلى الإنسان وإن كان هو الأول في اللفظ بدليل قوله بعده: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات]، فإنه للإنسان بلا نزاع، وتفريق الضمائر بجعل الأول للرب والثاني للإنسان لا يليق بالنظم الكريم.

ومن أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك أن يذكر شيء في موضع ثم يقع سؤال عنه وجواب في موضع آخر كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة]، فإنه لم يبين هنا ما المراد بالعالمين، ولكنه وقع سؤال عنهم وجواب في موضع آخر، وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣، ٢٤] الآية، وسؤال فرعون هذا - لعنه الله - وإن كان في الأصل عن الرب جل وعلا، فقد دخل فيه الجواب عن المراد بالعالمين كما ترى، ومن أمثله قوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة]، فإنه لم يبينه هنا مع أنه وقع سؤال عنه وجواب في موضع آخر وهو قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الأنعام: ١٧] الآية.

ومن أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك أن يكون الظاهر المتبادر من الآية بحسب الوضع اللغوي غير مراد بدليل قرآني آخر على أن المراد غيره ومثاله قوله تعالى: ﴿أَطْلَقْتُ مَرَاتَانَ﴾ [البقرة: ٢٢٩] الآية، فإن ظاهره المتبادر منه أن الطلاق كله محصور في المرتين، ولكنه تعالى بين أن المراد بالمحصور في المرتين خصوص الطلاق الذي تملك بعده الرجعة بقوله: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا مَحْلُ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، ومن أمثله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالنَّيِّ هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، فإن المتبادر من مفهوم الغاية أنه إذا بلغ أشده، فلا مانع من قربان ماله بغير التي

هي أحسن، ولكنه تعالى بين أن المراد بالغاية أنه إن بلغها يدفع إليه ماله إن أونس منه الرشد، وذلك في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦] الآية.

ومن أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً، ويكون في نفس الآية قرينة تدل على بطلان ذلك القول، ومثاله قول أبي حنيفة رحمته الله: إن المسلم يقتل بالكافر الذمي مثلاً قائلاً: إن ذلك يفيد عموم النفس بالنفس في قوله: ﴿وَكُنِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥] الآية، فإن قوله تعالى في آخر الآية: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥] الآية، قرينة على عدم دخول الكافر؛ لأن صدقته لا تكفر عنه شيئاً إذ لا تنفع الأعمال الصالحة مع الكفر، كما سترى تحقيقه في المائدة إن شاء الله تعالى، ومن أمثله قول الحسن البصري رحمته الله: إن المراد بابني آدم في قوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ [المائدة: ٢٧] الآية، رجلان من بني إسرائيل فإن قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣١] الآية، دليل على أن ذلك وقع في مبدأ الأمر قبل أن يعلم الناس دفن الموتى، أما في زمن بني إسرائيل فلا يخفى دفن الموتى على أحد، ولا يحتاج إسرائيلي البتة إلى تعلم دفن الميت من الغراب كما هو ظاهر، ومن أمثله قول مجاهد رحمته الله: إن المراد بقوله: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ [المائدة: ٩٥]، أنه متعمد لقتله ناس لإحرامه، فإن قوله تعالى في آخر الآية: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ [المائدة: ٩٥]، يدل على أنه مرتكب معصية والناسي لإحرامه غير مرتكب إثماً حتى يقال فيه ليدوق وبال أمره، ومن أمثله قول كثير من الناس: إن آية الحجاب أعني قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣] الآية، خاصة بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم، فإن تعليقه تعالى لهذا الحكم الذي هو إيجاب الحجاب بكونه أظهر لقلوب الرجال والنساء من الريبة في قوله: ﴿ذَلِكَ لِمَ أَظْهَرَ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، قرينة واضحة على قصد تعميم الحكم، إذ لم يقل أحد من جميع المسلمين: إن غير أزواج النبي صلى الله عليه وسلم لا حاجة إلى طهارة قلوبهن، ولا إلى طهارة قلوب الرجال من الريبة منهن، وقد تقرر في الأصول أن العلة قد تعمم معلولها وإليه أشار في مراقي السعود بقوله:

وقد تخصص وقد تعمم لأصلها لكنها لا تخرم

وسترى - إن شاء الله - تحقيق مسألة الحجاب في سورة الأحزاب، ومن أمثله قول بعض أهل العلم: إن أزواجه صلى الله عليه وسلم، لا يدخلن في أهل بيته في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣] الآية، فإن قرينة السياق صريحة في دخولهن؛ لأن الله تعالى قال: ﴿قُلْ لِرِزْوَانِكِ إِن كُنْتِن تَرِيدِينَ﴾ [الأحزاب: ٢٨]، ثم قال في نفس خطابه لهن: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾ [الأحزاب: ٣٣]. ثم قال بعده: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٤] الآية.

وأجمع جمهور علماء الأصول على أنّ صورة سبب النزول قطعية الدخول فلا يصح إخراجها بمخصص، وروي عن مالك: أنّها ظنية الدخول، وإليه أشار في مراقبي السعود بقوله:

واجزم بإدخال ذوات السبب وارو عن الإمام ظناً تصب

فالحق أنهم داخلات في الآية، وسترى - إن شاء الله - تحقيق ذلك في سورة الأحزاب .

ومن أنواع البيان التي تضمنها أيضاً أن يذكر وقوع شيء في القرآن، ثم يذكر في محل آخر كيفية وقوعه كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْنَا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [البقرة: ٥١] الآية، فإنه لم يبين هنا كيفية الوعد بها هل كانت مجتمعة أو مفردة؟ ولكنه يبينها في الأعراف بقوله: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَا بِعَشْرِ فَنَمَّ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢]، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠]، فإنه بين كيفية إغراقه لهم في مواضع آخر كقوله: ﴿أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَأَنْفَلِقَهُ﴾ [الشعراء: ٦٣] الآية، وقوله: ﴿فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: ٧٧] الآية، ومن هذا القبيل أن يذكر وقوع أمر من غير تعرض إلى كونه وقع أولاً بتنجز أو تعليق، ثم يبين ذلك في موضع آخر، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤] الآية، فإنه لم يبين هنا هل ذلك الأمر بالسجود وقع أولاً بتنجز أو تعليق وقد بين في (الحجر) و(ص) أنه وقع أولاً معلقاً قال في الحجر: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَنْسُونٍ ﴿١٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الحجر]. وقال في سورة ص: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [ص].

ومن أنواع البيان المذكورة فيه أن يقع طلب لأمر، ويبين في موضع آخر المقصود من ذلك الأمر المطلوب، ومثاله قوله تعالى في الأنعام: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَفِضِيَ الْأَمْرُ﴾ [الأنعام: ٨] الآية، فإنه بين في الفرقان أن مرادهم بالملك المقترح إنزاله أن يكون نذيراً آخر معه ﷺ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْسُ فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الفرقان].

ومن أنواع البيان التي تضمنها أيضاً أن يذكر أمر في موضع، ثم يذكر في موضع آخر شيء يتعلق بذلك الأمر، كأن يذكر له سبب أو مفعول أو ظرف مكان أو ظرف زمان أو متعلق: فمثال ذكر سببه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، فإنه لم يبين هنا سبب قسوة قلوبهم ولكنه بينه بقوله: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ بِمِيثَاقِهِمْ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣]. وقوله: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]. ومن أمثلة ذكر السبب قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، فإنه أشار هنا لسبب اسودادها بقوله: ﴿فَأَمَّا

الَّذِينَ أَسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ ﴿١٠٦﴾ [آل عمران: ١٠٦] الآية، وقد بيّنه في مواضع آخر كقوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠]، ونحوها من الآيات كما ستري - إن شاء الله - تحقيقه في آل عمران.

ومن أمثلة ذكر المفعول الواحد قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ ﴿١٦﴾ [النازعات]، فإنه لم يذكر هنا مفعول يخشى، ولكنه أشار إليه في هود والذاريات وإيضاحه أن الإشارة في قوله هنا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ ﴿١٦﴾ [النازعات]، راجعة إلى ما أصاب فرعون من النكال والعذاب المذكور في قوله: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ ﴿١٥﴾ [النازعات]. فإذا عرفت ذلك فاعلم أنه تعالى صرح في سورة هود بأن فيما أصاب فرعون من العذاب آية لمن خاف عذاب الآخرة فصرح بأن الخوف واقع على عذاب الآخرة فهو المفعول، والخوف المذكور في هود هو الخشية المذكورة في النازعات فقوله في هود: ﴿وَمَا أَمْرٌ فَرِعُونَ بِرَشِيدٍ﴾ ﴿٤٧﴾ يَدُمُّ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ﴿٤٧﴾ [هود: ٩٧ - ٩٨]، إلى قوله: ﴿الْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩]. وقوله بعده: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَن حَافٍ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣] يدل على أن المفعول المحذوف في النازعات هو عذاب الآخرة لتصريحه تعالى به في نفس القصة في هود ويؤيده قوله تعالى في الذاريات: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٣٨﴾ [الذاريات] الآية؛ لأن قوله: ﴿وَفِي مُوسَى﴾ [الذاريات: ٣٨]، معطوف على قوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿٣٧﴾ [الذاريات]، فيكون المعنى: وتركنا في قصة فرعون مع موسى وما أصابه من العذاب بسبب تكذيبه له آية للذين يخافون العذاب الأليم، ففيه بيان المفعول وأنه عذاب الآخرة، كما ذكر في هود، وستري - إن شاء الله - إيضاحه في النازعات، ومثاله في أحد المفعولين قوله: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٥١] الآية، ونحوها من جميع آيات اتخاذهم العجل إلهاً فإن المفعول الثاني محذوف في جميعها، وتقديره اتخذتم العجل إلهاً ونكتة حذفه دائماً التنبيه على أنه لا ينبغي أن يتلفظ بأن عجلاً مصطنعاً إله، وقد أشار إلى هذا المفعول في طه بقوله: ﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّارِعِيُّ﴾ ﴿٤٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُمْ خُوراً فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى ﴿٤٨﴾ [طه: ٨٧ - ٨٨].

ومثال ذكر ظرف المكان قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢﴾ [الفاتحة]، ثم بين في سورة الروم، أن السموات والأرض من الظروف المكانية لحمده جلّ وعلا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ١٨] الآية. ومثال ذكر ظرف الزمان قوله تعالى في القصص: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠] وقوله في أول سبأ: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١]، فبين أن الدنيا والآخرة من الظروف الزمانية لحمده، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة: ١٤٣]، فإنه بيّن في النساء أن شهادة الرسول واقعة يوم القيامة وذلك في قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ

هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوْا الرَّسُولَ لَوْ تَسَوَّاهُمْ بِالْأَرْضِ ﴿النساء: ٤١﴾،
 [٤٢]، ومثال ذكر المتعلق قوله تعالى في النساء: ﴿وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْتُفَ بَأْسَ
 الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: ٨٤] الآية. فإنه لم يبين هنا متعلق التحريض ولكنه بينه في الأنفال
 بقوله: ﴿(وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥] الآية. ومن أمثله قوله تعالى:
 ﴿وَجَاءَ رَيْكُ وَالْمَلِكُ صَفًا صَفًا﴾ [الفجر: ٢٦] وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ
 يَأْتِيَ رَيْكُ﴾ [الأنعام: ١٥٨] الآية. فإنه ذكر في البقرة لإتيانه جل وعلا يوم القيامة متعلقاً،
 وذلك في قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] الآية.
 فالجار والمجرور الذي هو قوله في ظلل يتعلق بقوله: يأتهم ومن أمثله قوله: ﴿فَإِذَا
 أَنْشَقَّتِ السَّمَاءَ فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ [الرحمن: ٣٧] الآية. وقوله: ﴿وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءَ فِيهِ يَوْمَئِذٍ وَهْبَةٌ
 ﴿١١﴾﴾ [الحاقة: ١١] وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، فقد ذكر لانشقاقها متعلقاً في
 الفرقان في قوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ﴾ [الفرقان: ٢٥] الآية.

ومن أنواع البيان المذكورة في هذا الكتاب المبارك الاستدلال على أحد المعاني
 الداخلة في معنى الآية بكونه هو الغالب في القرآن فغلبته فيه دليل على عدم خروجه من
 معنى الآية، ومثاله قوله تعالى: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، فقد قال بعض
 العلماء: إن المراد بهذه الغلبة، الغلبة بالحجة والبيان، والغالب في القرآن هو استعمال
 الغلبة في الغلبة بالسيف والسنان، وذلك دليل واضح على دخول تلك الغلبة في الآية؛
 لأن خير ما يبين به القرآن القرآن فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتٌ لَوْ كَانُوا
 يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢]، وقوله: ﴿وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُتْلَفْ أَوْ يُغْلَبْ﴾ [النساء: ٧٤].
 وقوله: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ
 الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: ٦٥]. وقوله: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ
 مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ يَازِنُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٦] الآية. وقوله: ﴿أَلَمْ يَغْلِبِ اللَّهُ الْكُفْرَ
 فِي آدَمَ الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَبْعُونَ﴾ [في بضع سنين] [الروم: ١ - ٤]، إلى
 غير ذلك من الآيات، وقد يكون المعنى المذكور متكرراً قصده في القرآن، إلا أنه ليس
 أغلب من قصد سواه، والاستدلال به مذكور في هذا الكتاب أيضاً، وهو دون الأول
 في الرتبة، فالاستدلال به شبه الاستثناس، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾
 [البقرة: ١٩]، فقد قال بعض أهل العلم: معناه مهلكهم. وإطلاق الإحاطة وإرادة
 الإهلاك متكرر في القرآن، إلا أنه ليس أغلب في معنى الإحاطة في القرآن ومنه قوله
 تعالى: ﴿وَوَطَّنُوا أُنْهَمُ أَحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله: ﴿لَتَأْتِيَ بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾
 [يوسف: ٦٦]، على أحد القولين وقوله: ﴿وَأُحِيطَ بِشَعْرِهِ﴾ [الكهف: ٤٢] الآية. وسترى
 هذا المبحث في سورة البقرة، إن شاء الله تعالى.

ومن هذا النوع إطلاق الظلم على الشرك كقوله: ﴿وَلَوْ يَلَيْسُوا إِيْمَانَهُمْ يُظْلَمُوا﴾
 [الأنعام: ٨٢]. وقوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمْ

الظَّالِمُونَ ﴿البقرة: ٢٥٤﴾ وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [يونس]، كما ستراه - إن شاء الله تعالى - في البقرة والأنعام.

ومن أنواع البيان المذكورة في هذا الكتاب المبارك وهو من أهمها بيان أن جميع ما وصف الله به نفسه في هذا القرآن العظيم من الصفات كالاستواء واليد والوجه ونحو ذلك من جميع الصفات، فهو موصوف به حقيقة لا مجازاً مع تنزيهه - جل وعلا - عن مشابهة صفات الحوادث سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، وذلك البيان العظيم لجميع الصفات في قوله - جلّ وعلا -: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فنفى عنه مماثلة الحوادث بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وأثبت له الصفات على الحقيقة بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، وسترى - إن شاء الله - تحقيق هذا المبحث وإيضاحه بالآيات القرآنية بكثرة في سورة الأعراف.

ومن أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك أنا إذا بيّنا قرآناً بقرآن في مسألة يخالفنا فيها غيرنا، ويدعي أن مذهبه المخالف لنا يدل عليه قرآن أيضاً، فإننا نبين بالسنة الصحيحة صحة بياننا وبطلان بيانه، فيكون استدلالنا بكتاب وسنة، فإن استدلالنا من خالفنا بسنة أيضاً مع القرآن الذي استدلالنا به، فإننا نبين رجحان ما يظهر لنا أنه الراجح، وكذلك إذا استدلالنا بخالفنا بقرآن ولم يقدّم دليل من سنة شاهدنا لنا ولا له، فإننا نبين وجه رجحان بياننا على بيانه.

مثال الأولى من هذه المسائل الثلاث قولنا: إن قراءة ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦]، بالخفض المفهومة مسح الرجلين في الوضوء تبينها قراءة ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بالنصب الصريحة في الغسل فهي مبينة وجوب غسل الرجلين في الوضوء، فيفهم منها أن قراءة الخفض لأجل المجاورة للمخفوض أو لغير ذلك من المعاني، كما ستراه - إن شاء الله - مبيناً في المائدة، فيقول الشيعي القائل بمسح الرجلين في الوضوء: بل قراءة الخفض صريحة في المسح على الرجلين فهي مبينة أن قراءة النصب من العطف على المحل؛ لأن المجرور الذي هو برؤوسكم في محل نصب فنقول: السنة الصحيحة تدل على صحة بياننا وبطلان بيانك، كقوله ﷺ: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ» وغير ذلك من الأحاديث الصحيحة المصرحة بوجوب غسل الرجلين في الوضوء، ولنا أيضاً أن نقول: لو سلمنا أن قراءة وأرجلكم بالخفض يراد بها المسح، فلا يكون ذلك المسح إلا على خف؛ لأن من أنزل عليه القرآن ﷺ، قيل له: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] ولم يمسح ﷺ، على رجله في الوضوء إلا على خفين، فتكون قراءة النصب مبينة لوجوب غسلهما، وقراءة الخفض مبينة لجواز المسح على الخفين، وسترى تحقيق هذه المسألة - إن شاء الله - في محلها من سورة المائدة.

ومثال المسألة الثانية من المسائل الثلاث المذكورة قولنا: إن الأظهر في القروء

في قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ قُرُوءٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، أنها الأطهار بدليل قوله تعالى: ﴿فَطَلِقُوهُنَّ لِمَدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]، والزمن المأمور بالطلاق فيه زمن الطهر لا زمن الحيض، فدل على أن العدة بالطهر، وتدل له السنة الصحيحة كقوله ﷺ في حديث ابن عمر: «فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ» والإشارة في قوله «فتلك العدة» لزمن الطهر الواقع فيه الطلاق، وهو تصريح من النبي ﷺ، بأن الطهر هو العدة، وتدل له التاء في ﴿ثَلَاثَةٌ قُرُوءٌ﴾ كما تقدم، واستدل من يقول: بأن القروء الحيضات بكتاب وسنة أيضاً، أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿وَالَّتِي يَسِّنَ مِنَ الْمَجِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ [الطلاق: ٤]، فإنه رتب العدة بالأشهر على عدم الحيض، فدل على أن أصل العدة بالحيض، وأن الأشهر بدل من الحيضات عند عدمها، وأما السنة فحديث اعتداد الأمة بحيضتين، وحديث «دعي الصلاة أيام أقرائك» وسترى تفصيل هذه المسألة وأدلة الفريقين في سورة البقرة - إن شاء الله. وقد ذكرنا أن كونها الأطهار أرجح دليلاً في نظرنا؛ لأن آيتها أصرح وحديثها المصرح بها أصح.

ومثال المسألة الثالثة من المسائل الثلاث المذكورة بياناً أن نائب الفاعل ربيون في قوله تعالى: ﴿وَكَايِنٍ مِّنْ نَّبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رَيْبُونٌ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، على قراءة البناء للمفعول بقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، ونحوها من الآيات، وبيانه أننا لو قلنا: إن نائب الفاعل ضمير النبي لزم على ذلك قتل كثير من الأنبياء في ميدان الحرب، كما تدل عليه صيغة كآين وتصريح الله تعالى بأنه كتب الغلبة لنفسه ولرسله ينفي ذلك نفيًا لا خفاء به، لا سيما وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرُوا وَلَا مَبْدَل لِّكَلِمَتِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٣٤]، فإن قوله تعالى: ﴿وَلَا مَبْدَل لِّكَلِمَتِ اللَّهِ﴾ صريح في أنه لا مبدل لكون الرسل غالبيين؛ لأن غلبتهم لأعدائهم هي مضمون كلمة ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، فلا شك أنها كلماته التي صرح بأنها لا مبدل لها كما ذكره القرطبي وغير واحد، ونفى عن المنصور أن يكون مغلوباً نفيًا باتاً بقوله: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

وقد أوضح تعالى أن المقتول من المتقاتلين ليس غالباً في قوله: ﴿وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ الآية [النساء: ٧٤]، حيث جعل الغالب قسماً مقابلاً للمقتول، ومعلوم ضرورة من اللسان الذي نزل به القرآن أن المقتول من المتقاتلين ليس بغالب، فهذا يبين بإيضاح أن نائب الفاعل ربيون، ويستشهد له بقراءة قتل بالتشديد؛ لأن التكثر المدلول عليه بالتشديد يدل على وقوع القتل على الربيين، ولأجل هذه القراءة رجح الزمخشري وابن جني والبيضاوي والألوسي وغيرهم أن نائب الفاعل ربيون، وقد قدمنا أننا لا نعلم في البيان على القراءة الشاذة، وإنما نذكرها استشهاداً للبيان بقراءة سبعية كما هنا فيقول المخالف لنا في هذه المسألة كابن جرير، وابن إسحاق، والسهيلي - رحمهم الله - وغيرهم: قد دلت آيات أخر على أن نائب الفاعل ضمير النبي ﷺ وهي

الآيات المصرحة بوقوع القتل على بعض الأنبياء كقوله: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، ونحوها من الآيات، وهي تبين أن القتل في محل النزاع واقع على النبي ﷺ فنقول: يجب تقديم بياننا على بيانكم من ثلاثة أوجه:

الأول: أن الآيات المصرحة بقتل الكفار بعض الرسل التي هي دليل بيانكم أعم من محل النزاع؛ لأن النزاع في قتل الرسل في ميدان الحرب خاصة دون غيره، والآيات التي دلت على قتل بعض الرسل ليست واحدة منها في خصوص القتال البتة، والبيان لا يكون بالأعم؛ لأن الدليل على الأعم ليس دليلاً على الأخص؛ لإطباق العقلاء كافة على أن وجود الأعم لا يقتضي وجود الأخص؛ فمطلق قتل الرسول لا يدل على كونه في جهاد؛ لأنه أعم من كونه في جهاد أو غيره كما هو واضح، بخلاف البيان الذي ذكرنا بقوله: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، ونحوها، فإنه في محل النزاع؛ لأنه يصرح بأن الرسل غالبون، وهو نص في أن الرسول المقاتل غير مقتول؛ لأن المقتول غير غالب كما بينه بقوله: ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾ [النساء: ٧٤]، كما تقدم، ومعلوم أنه لا يعارض خاص في محل النزاع بأعم منه.

الوجه الثاني: أن البيان الذي ذكرناه تتفق به آيات القرآن العظيم على أفصح الأساليب العربية ولم يقع بينها تصادم البتة، وما ذكره المخالف يؤدي إلى تناقضها ومصادمة بعضها لبعض؛ لأن الرسول الذي لم يؤمر بجهاد إذا قتل لم يكن في ذلك إشكال ولا مناقضة لقوله: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، لأنه لم يؤمر بالمغالبة، فلا يصدق عليه أنه مغلوب ولا غالب لعدم وجود المغالبة من أصلها في حقه؛ لأنها إن عدت من أصلها فلا يقال غالب ولا مغلوب؛ لأن الغلبة صفة إضافية لا تقوم إلا بين متغالبين بخلاف قتل الرسول المأمور بالمغالبة في الجهاد، فإنه مناقض لقوله: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، والله يقول فيما وعد به رسوله: ﴿وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّئِكَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

الثالث: أن جميع الآيات الدالة على قتل بعض الرسل المستدل بها على صورة النزاع كلها واردة في قتل الرسل في غير جهاد، كقتل بني إسرائيل أنبياءهم ظلماً في غير قتال، وسترى - إن شاء الله تعالى - تحقيق هذا المبحث في آل عمران، والصفات والمجادلة، وربما كان في الآية الكريمة أقوال كلها حق وكل واحد منها يشهد له قرآن، فإننا نذكرها ونذكر القرآن الدال عليها من غير تعرض لترجيح بعضها؛ لأن كل واحد منها صحيح، ومثاله قوله تعالى في أول الأنعام: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ٣]، فإن فيه للعلماء ثلاثة أقوال:

الأول: أن المعنى وهو الإله، أي المعبود بحق في السموات والأرض، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ [الزخرف: ٨٤].

الثاني: أن قوله: في السموات وفي الأرض متعلق بقوله: يعلم سركم وعليه فالمعنى وهو الله يعلم سركم وجهركم في السموات والأرض، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [الفرقان: ٦].

الثالث: وهو اختيار ابن جرير أن الوقف على قوله: ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ وقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ﴾ متعلق بقوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ [الأنعام: ٣]، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنُمْ مَن فِي سَمَاءِ أَنْ يَخِيفَ بِكُمْ الْأَرْضَ﴾ الآية [الملك: ١٦]، وسترى - إن شاء الله - إيضاحه في الأنعام.

ومن أنواع البيان المذكورة فيه تفسير اللفظ بلفظ أشهر منه وأوضح عند السامع كقوله في حجارة قوم لوط: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ الآية [الحجر: ٧٤]، فإنه تعالى بيّن في الذاريات في القصة بعينها أن المراد بالسجيل الطين، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٧٣﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الذاريات] الآية.

ومن أنواع البيان المذكورة فيه أن يرد لفظ محتمل لأن يراد به الذكر وأن تراد به الأنثى، فبيّن المراد منهما، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا﴾ الآية [البقرة: ٧٢]، فإن النفس تطلق على الذكر والأنثى، وقد أشار تعالى إلى أنها هنا ذكر بتذكير الضمير العائد إليها في قوله: ﴿فَقُلْنَا أَصْرِبُوهُ بَعْضًا﴾ الآية [البقرة: ٧٣].

ومن أنواع البيان المذكورة فيه أن يكون الله خلق شيئاً لحكم متعددة فيذكر بعضها في موضع، فإننا نبين البقية المذكورة في المواضع الأخر، ومثاله قوله تعالى في الأنعام: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِيَهْتَدُوا بِهَا﴾ الآية [الأنعام: ٩٧]، فإن من حكم خلق النجوم تزيين السماء الدنيا ورجم الشياطين أيضاً كما بينه تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]. وقوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا زِينَةً الْكُوكِبِ ﴿٦﴾ وَحَفِظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴿٧﴾﴾ [الصافات].

ومن أنواعها أن يذكر أمر أو نهي في موضع، ثم يبين في موضع آخر هل حصل الامتثال في الأمر أو النهي أو لا؟ وكذلك أن يذكر شرط ثم يذكر في موضع آخر هل حصل ذلك الشرط أو لا؟

فمثال الأمر قوله تعالى لنبيه ﷺ والمؤمنين: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦] إلى قوله: ﴿لَا نَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٣٦].

فقد بين أنهم امتثلوا هذا الأمر بقوله: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، إلى قوله: ﴿لَا نَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ومثال النهي قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ [النساء: ١٥٤]، فقد بين أنهم لم يمتثلوا بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ الآية [البقرة: ٦٥]، وقوله: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ الآية [الأعراف: ١٦٣]، والمراد بعضهم.

ومثال الشرط قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقْبِلُونَكَ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧]، فقد بين في أول المائدة أنهم لم يستطيعوا بقوله: ﴿أَلْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وقد بينه أيضاً بقوله في براءة والفتح والصف: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣].

ومن أنواع البيان المذكورة فيه أن يذكر أن شيئاً سيقع ثم يبين وقوعه بالفعل كقوله في الأنعام: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ الآية [الأنعام: ١٤٨]، وصرح في النحل، بأنهم قالوا ذلك بالفعل بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية [النحل: ٣٥].

ومن أنواع البيان المذكورة في هذا الكتاب المبارك أن يحيل تعالى على شيء ذكر في آية أخرى، فإننا نبين الآية المحال عليها كقوله في النساء: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ الآية [النساء: ١٤٠]، والآية المحال عليها هي قوله تعالى في الأنعام: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨]. ومن أمثلته قوله تعالى في النحل: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَّا قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ الآية [النحل: ١١٨]، والمراد به ما قص عليه في الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَّا قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ الآية [النحل: ١١٨]. ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْتَ فَأَتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢] فإن محل الإتيان المعبر عنه بلفظة حيث المحال على الأمر به هنا أشير إليه في موضعين:

أحدهما: قوله تعالى: ﴿سَأَوْكُم حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]؛ لأن قوله: ﴿فَأْتُوا﴾ أمر منه تعالى بالإتيان، وقوله: ﴿حَرْثَكُمْ﴾ يعين محل الإتيان وأنه في محل حرث الأولاد وهو القبل دون الدبر فاتضح أن محل الإتيان المأمور به المحال عليه هو محل بذر الأولاد، ومعلوم أنه القبل، وسترى - إن شاء الله - تحقيق تحريم الإتيان في الدبر في سورة البقرة.

ثانيهما: قوله تعالى: ﴿فَأَلْقِنِ بَشْرُوهُنَّ وَابْتَعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]. فقوله تعالى: ﴿بَشْرُوهُنَّ﴾ أي جامعوهن، والمراد بـ ﴿مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الولد على التحقيق، وهو قول الجمهور، وعليه فالمعنى جامعوهن ﴿وَابْتَعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، أي ولتكن تلك المجامعة في محل ابتغاء الولد، ومعلوم أنه القبل دون غيره، وسترى إيضاحه - إن شاء الله تعالى - في محله.

ومن أنواع البيان المذكورة فيه أن يذكر شيئاً له أوصاف مذكورة في مواضع أخرى، فإننا نبين أوصافه المذكورة في تلك المواضع كقوله تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧]، فإننا نبين صفات ظل أهل الجنة المذكورة في غير هذا الموضع كقوله: ﴿أَكْأُهَا دَائِبٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، وقوله: ﴿وَظِلٌّ مَدْدُورٌ﴾ [الواقعة: ٣٥]، ونحو ذلك، ومنها أيضاً

أن يذكر وصف الشيء، ثم يذكر نقيض ذلك الوصف لضد ذلك الشيء كقوله في ظل أهل النار: ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلِّ ذِي تِلْكَ شُعْبٍ ﴿٢٦﴾ لَا ظِلِيلٍ وَلَا يُعْنِي مِنَ الْهَبِّ ﴿٢٦﴾ [المرسلات]، مع ذكر أوصاف ظل أهل الجنة كما قدمنا.

ومن أهم أنواع البيان المذكورة فيه أن يشير تعالى في الآية من غير تصريح إلى برهان يكثر الاستدلال به في القرآن العظيم على شيء، فإننا نبين ذلك، ومثاله قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آعِبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]، فقد أشار تعالى في هذه الآية الكريمة إلى ثلاثة براهين من براهين البعث يكثر الاستدلال على البعث بكل واحد منها في القرآن.

الأول: خلق الخلائق أولاً فإنه من أعظم الأدلة على القدرة على الخلق مرة أخرى، وقد أشار تعالى إلى هذا البرهان هنا بقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢١]، وأوضحه في آيات كثيرة كقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]. وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلٍ﴾ [الحج: ٥]، والآيات بمثل هذا كثيرة جداً.

الثاني: خلق السموات والأرض؛ لأن من خلق ما هو أكبر وأعظم فهو قادر على خلق ما هو أصغر بلا شك، وأشار لذلك هنا بقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢] وأوضحه في آيات كثيرة كقوله: ﴿ءَأَنْتُمْ أَنْتُمْ خَلَقُوا السَّمَاءَ بَنَاهَا﴾ ﴿٧﴾ الآية [النازعات]. وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٨١﴾ [يس]، وقوله: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، والآيات بمثل هذا كثيرة أيضاً.

الثالث: إحياء الأرض بعد موتها، وقد أشار له هنا بقوله: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]، وأوضحه في آيات كثيرة كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ﴾ [فصلت: ٣٩]، وقوله: ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩]. وقوله: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١]، والآيات بمثل ذلك كثيرة أيضاً، وسترى إن شاء الله تعالى أمثلة كثيرة للبراهين الثلاثة المذكورة في محلها.

ومن أنواع البيان المذكورة فيه أن يذكر لفظ عام، ثم يصرح في بعض المواضع بدخول بعض أفراد ذلك العام فيه كقوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمِ شَعْتِرَ اللَّهِ﴾ الآية [الحج: ٣٢]، فقد صرح بدخول البدن في هذا العموم بقوله بعده: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعْتِرِ اللَّهِ﴾ الآية [الحج: ٣٦].

واعلم: أن مما التزمنا في هذا الكتاب المبارك أنه إن كان للآية الكريمة مبيّن من القرآن غير واف بالمقصود من تمام البيان فإننا نتمم البيان من السنة من حيث إنها تفسير

للمبين باسم الفاعل، ومثاله قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، فقد أشار تعالى إلى أوقاتها في قوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِكَ الشَّنِيسِ﴾ الآية [الإسراء: ٧٨]، وقوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ الآية [هود: ١١٤]، وقوله: ﴿فَسَبِّحْ لِلَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ الآية [الروم]، على ما ذكره جمع من العلماء من أنها في أوقات الصلاة وكفوله تعالى: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]، على القول بأنها في الزكاة وأنها غير منسوخة، فإنها تشير لها آيات الزكاة كقوله: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقوله: ﴿وَمِمَّا أَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، وكقوله: ﴿قُلْ لَا آجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ الآية [الأنعام: ١٤٥]، فإن القرآن زيد فيه على هذا الحصر تحريم الخمر فبين ما زاده ﷺ بالسنة الصحيحة، فمثل هذه المسائل نينها بياناً تاماً بالسنة تبعاً للبيان القرآني.

واعلم: أن الغالب في الأمثلة التي ذكرناها تعددها في القرآن بكثرة، ومنها ما يتعدد من غير كثرة وربما ذكرنا فرداً من أفراد البيان لا نظير له كإشارته تعالى إلى أقل أمد الحمل بقوله: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحاف: ١٥]. مع قوله: ﴿وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]، فلم يبق للحمل من الثلاثين شهراً بعد عامي الفصال إلا ستة أشهر، فدل ذلك على أنها أمد للحمل يوضع فيه تاماً.

واعلم: أن أقسام البيان في هذا الكتاب المبارك بالنسبة إلى المنطوق والمفهوم أربعة؛ لأن كلا من المبين باسم المفعول والمبين باسم الفاعل قد يكون منطوقاً، وقد يكون مفهوماً، فالمجموع أربع من ضرب حالتي المنطوق في حالتي المفهوم.

الأولى: بيان منطوق بمنطوق كبيان قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يَتَلَّى عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١].
وبقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ الآية [المائدة: ٣].

الثانية: بيان مفهوم بمنطوق كبيان مفهوم قوله: ﴿هُدًى لِلْمُنْفِقِينَ﴾ [البقرة: ٢]،
بمنطوق قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]
وقوله: ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

الثالثة: بيان منطوق بمفهوم كبيان قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ﴾ الآية [المائدة: ٣]. بمفهوم آية الأنعام، فإن تحريم الدم مطلقاً منطوق هنا وقوله تعالى في الأنعام: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥]، يدل بمفهوم مخالفته على أن غير المسفوح ليس كذلك فبين هذا المفهوم أن المراد بالدم في الآية الأولى غير المسفوح، ومن أمثلته بيان قوله: ﴿وَالزَّانِ﴾ [النور: ٢]، بمفهوم الموافقة في قوله: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَدَابِ﴾ [النساء: ٢٥]، فإنه يفهم من مفهوم موافقته أن العبد الذكر كالأمة في ذلك يجلد خمسين جلدة، فبين هذا المفهوم أن المراد بالزاني خصوص الحر.

واعلم: أن مثل هذا من مفهوم الموافقة يسميه الشافعي وبعض الأصوليين قياساً،

وهو المعروف عندهم بالقياس في معنى الأصل، ويسمى مفهوم الموافقة، وإلغاء الفارق، وتنقيح المناط، وأكثر أهل الأصول على أنه مفهوم وليس بقياس، كما سترى تحقيقه في مواضع من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى، ومن أمثلة بيان المنطوق بالمفهوم قوله في الخمر: ﴿رَجَسُ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [المائدة: ٩٠]، فإنه يدل على أنها نجسة العين؛ لأن الرجس هو المستقذر الخبيث ويدل عليه مفهوم قوله في شراب الآخرة: ﴿وَسَقَنَهُمْ رُبَّهُمْ سَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]؛ فإن مفهومه أن خمر أهل الدنيا ليست كذلك كما قاله الفراء وغير واحد، وسترى إيضاحه في المائدة إن شاء الله تعالى.

الرابعة: بيان مفهوم بمفهوم ومثاله قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: ٥]، على القول بأن المراد بالمحصنات الحرائر، كما روي عن مجاهد فإنه يدل بمفهومه على أن الأمة الكتابية لا يجوز نكاحها، ويدل لهذا أيضاً مفهوم قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنَ فَتْيَتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: ٢٥]، فمفهوم قوله: المؤمنات يدل على منع تزويج الإماء الكافرات ولو عند الضرورة، وهو بيان مفهوم بمفهوم كما ترى.

واعلم - وفقني الله وإياك لما يحبه ويرضاه -: أن هذا الكتاب المبارك تضمن أنواعاً كثيرة جداً من بيان القرآن بالقرآن غير ما ذكرنا تركنا ذكر غير هذا منها خوف إطالة الترجمة، والمقصود بما ذكرنا من الأمثلة مطلق بيان كثرة الأنواع التي تضمنها واختلاف جهاتها - وفي البعض تنبيه لطيف على الكل - والغرض أن يكون الناظر في الترجمة على بصيرة مما يتضمنه الكتاب في الجملة قبل الوقوف على جميع ما فيه.



مقدمة في تعريف الإجمال والبيان في اصطلاح أهل الأصول

اعلم أولاً أن المجمل في اللغة: هو المجموع، وجملة الشيء مجموعته، وأما في الاصطلاح فقد اختلفت فيه عبارات أهل الأصول، والتحقيق: أنه هو ما احتمل معنيين أو أكثر من غير ترجح لواحد منهما أو منها على غيره، وعرفه في مراقي السعود بقوله: وذو وضوح محكم والمجمل هو الذي المراد منه يجهل

واعلم أن المبهم أعم من المجمل عموماً مطلقاً، فكل مجمل مبهم، وليس كل مبهم مجملاً، فمثل قولك لعبدك: تصدق بهذا الدرهم على رجل، فيه إبهام وليس مجملاً؛ لأن معناه لا إشكال فيه؛ لأن كل رجل تصدق عليه به حصل به المقصود، والدليل على أن المجمل هو ما ذكرنا أن اللفظ لا يخلو من أحد أمرين:

إما أن يدل على معنى واحد لا يحتمل غيره فهو النص نحو: ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾

[البقرة: 1٩٦]، وإما أن يحتمل غيره، وهذا له حالتان:

الأولى: أن يكون أحد المحتملين أظهر.

والثانية: أن يتساويا بأن لا يكون أحدهما أظهر من الآخر، فإن كان أحد المعنيين أظهر فهو الظاهر ومقابله محتمل، وإن استويا فهو المجمل كما ذكرنا، وحكم النص أنه لا يعدل عنه إلا بنسخ، وحكم الظاهر أنه لا يعدل عنه إلا بدليل أقوى منه يدل على صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه إلى المحتمل المرجوح، وحكم المجمل أن يتوقف فيه حتى يدل دليل مبين للمقصود من المحتملين، وصرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه إلى المحتمل المرجوح هو المعروف في اصطلاح أهل الأصول بالتأويل، وسيأتي إيضاح أنواع التأويل كلها - إن شاء الله تعالى - في سورة آل عمران.

واعلم أن اللفظ قد يكون واضح الدلالة من وجه مجملاً من وجه آخر كقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤١]، فإنه واضح في إتياء الحق، مجمل في مقداره؛ لاحتماله النصف أو أقل أو أكثر، وإلى هذا أشار في مراقي السعود بقوله:

وقد يجي الإجمال من وجه ومن وجه يراه ذا بيان من فطن

وأما البيان فهو لغة: اسم مصدر بمعنى التبيين، وهو الإيضاح والإظهار كالسلام بمعنى التسليم، والكلام بمعنى التكليم، والطلاق بمعنى التطلق، وقد يطلق على المبين والمبين؛ بالكسر والفتح، ومن أهل الأصول من يطلق البيان على كل إيضاح سواء أتقدمه خفاء أم لا، وكثير من الأصوليين لا يطلقون البيان بالاصطلاح الأصولي إلا على

إظهار ما كان فيه خفاء وعليه درج في مراقي السعود بقوله معرّفًا للبيان في الاصطلاح:

تصيير مشكل من الجلي وهو واجب على النبي
إذا أريد فهمه وهو بما من الدليل مطلقاً يجلو العمي

فكل ما يزيل الإشكال يسمى بياناً في الاصطلاح بمعنى المبين بالكسر، وسترى - إن شاء الله - في هذا الكتاب المبارك من أنواع البيان وأنواع ما به البيان ما فيه كفاية.

واعلم أن التحقيق جواز بيان المتواتر من كتاب أو سنة بأخبار الآحاد، وكذلك يجوز بيان المنطوق بالمفهوم كما قدّمنا خلافاً لقوم منعوا ذلك زاعمين أن المنطوق أظهر من المفهوم والأظهر لا يبين بالأخفى، وحكاه الباجي عن أكثر المالكية وأجيب بأنه ما كل منطوق يقدم على المفهوم بل بعض المفاهيم أقوى دلالة على الأمر من دلالة المنطوق عليه، ألا ترى أن دلالة مفهوم حديث «في الغنم السائمة زكاة» عند من لا يرى الزكاة في المعلوفة أظهر في عدم الزكاة في المعلوفة، من دخولها في عموم منطوق حديث [في أربعين شاة شاة]؛ لأن المفهوم أخص بها وأقوى دلالة فيها من عموم المنطوق، وإلى هذا أشار في مراقي السعود بقوله:

وبين القاصر من حيث السند أو الدلالة على ما يعتمد

فالبيان بالقاصر سنداً كبيان المتواتر بالآحاد، والبيان بالقاصر دلالة كبيان المنطوق بالمفهوم كما قدّمنا، والمراد بقصوره في الدلالة أغلبية ذلك لا لزومه في كل حال كما أشرنا إليه آنفاً، وحكى القاضي الباقلاني عن جماعة من العراقيين أن المبين بالفتح إن كان وجوبه يعم جميع المكلفين كالصلاة فلا يبين إلا بمتواتر، وإليه أشار في (مراقي السعود) بقوله:

وأوجبين عند بعض علما إذا وجوب ذي الخفاء عما

ولا يخفى سقوط هذا القول وأنه لا وجه لرد حديث صحيح دال على بيان نص من غير معارض بدعوى أنه لم يتواتر ومنع بيان المتواتر مطلقاً بالآحاد أشد سقوطاً.

واعلم أن الأصوليين اختلفوا في البيان بالقول هل هو أقوى من البيان بالفعل أو لا؟ قال مقيد - عفا الله عنه -: الظاهر أن التحقيق في ذلك هو ما حققه أبو إسحاق الشاطبي رحمته الله، وهو أن كل واحد منهما أقوى من صاحبه من جهة، فالفعل يبلغ من بيان الكيفيات المعينة المخصوصة ما لا يبلغه القول، والقول يبلغ من بيان الخصوص والعموم في الأحوال والأشخاص ما لا يبلغه الفعل.

مسائل تتعلق بالبيان

المسألة الأولى: إذا ورد بعد المجرى قول وفعل، فلا يخلو الأمر من واحدة من

ثلاث حالات:

الأولى: أن يتفق القول والفعل. **الثانية:** أن يزيد الفعل على القول.

الثالثة: أن يزيد القول على الفعل، فإن اتفق القول والفعل معاً، فالمتقدم منهما هو المبين والثاني تأكيد له، كما لو قال بعد نزول آية القطع في السرقة: القطع من الكوع، وقطع بالفعل من الكوع وإن جهل المتقدم فالبيان بأحدهما لا بعينه، وقال الأمدي: يتعين المرجوح إن كان أحدهما أرجح؛ لأن المرجوح لا يكون مؤكداً للراجح.

قال القرافي: وهو غير متجه؛ لأن الأضعف يزيد في رتبة الظن الحاصلة قبله كزيادة شاهد على أربعة وإن زاد الفعل على القول، كبيانه ﷺ، أن كيفية الصوم هي صوم كل يوم بانفراده من غير وصال بين يومين، مع أنه ﷺ ربما واصل، فإن البيان يكون بالقول والفعل يدل على مطلق الطلب في حقه ﷺ، خاصة بنذب أو إيجاب تقدم القول أو تأخر، وقال أبو الحسن البصري: المتقدم منهما هو البيان وألزم نسخ الفعل المتقدم مع إمكان الجمع، قال المحلي: ولو نقص الفعل عن مقتضى القول كما لو طاف بعد نزول آية الحج طوافاً واحداً وأمر باثنين فقياس الأول أن القول هو البيان ونقص الفعل تخفيف عنه ﷺ، تأخر الفعل أو تقدم، وقياس ما لأبي الحسن أن البيان هو المتقدم، وإلى هذه المسألة أشار في (مراقي السعود) بقوله:

والقول والفعل إذا توافقا	فانم البيان للذي قد سبقا
وإن يزد فعل فللقول انتسب	والفعل يقتضي بلا قيد طلب
والقول في العكس هو المبين	وفعله التخفيف فيه بين

المسألة الثانية: اعلم أنه لا يجوز تأخير البيان لمجمل أو ظاهر لم يرد ظاهره عن وقت الحاجة إلى العمل به، وقال قوم: يجوز عقلاً لكنه لم يقع بالفعل، وأجراه كثير منهم على الخلاف في مسألة التكليف بما لا يطاق، وإلى هذه المسألة أشار في (مراقي السعود) بقوله:

تأخر البيان عن وقت العمل وقوعه عند المجيز ما حصل

وذكر بعض المتأخرين عن ابن العربي المالكي أنه قال في كتابه المحصول: لحظت ذلك مدة ثم ظهر لي جوازه، ولا يكون من تكليف ما لا يطاق بل رفعاً للحكم وإسقاطاً له في حق المكلف، قال مقيده - عفا الله عنه - : وبناء على أن البيان لا يجوز تأخيره عن وقت الفعل صرحوا بأن التخصيص بعد العمل بالعام نسخ في البعض، وكذلك التقييد بعد العمل بالمطلق؛ لأن كلا من التخصيص والتقييد بيان وهو لا يتأخر عن وقت الفعل، فإذا تأخر تعين النسخ، وإليه أشار في (المراقي) في التخصيص بقوله:

وإن أتى ما خص بعد العمل نسخ والغير مخصصاً جلي

وفي التقييد بقوله:

وإن يكن تأخر المقييد عن عمل فالنسخ فيه يعهد

تنبيه: فإن قيل: قد وقع تأخير البيان عن وقت الحاجة كما وقع في صبح ليلة

الإسراء، فإن جبريل عليه السلام، لم يبين للنبي صلى الله عليه وسلم، كيفيتها ولا وقتها حتى ضاعت، فالجواب من وجهين أشار لهما العبادي في الآيات البيئات:

أحدهما: أن وجوبها كان مشروطاً بالبيان قبل فوات وقتها ولم يبين له صلى الله عليه وسلم؛ ولذا لم يفعلها أداء ولا قضاء. قال: ومن هنا يعلم أن الكلام في غير الوجوب المعلق على البيان، أما هو فلا يتصور فيه تأخير البيان عن وقت الفعل.

ثانيهما: أن الصلوات الخمس فرضت ليلة الإسراء على أن ابتداء الوجوب من ظهر ذلك اليوم فما بعده دون ما قبله.

المسألة الثالثة: أما تأخير البيان إلى وقت الحاجة إلى العمل به فالتحقيق أنه جائز وواقع وهو مذهب الجمهور ومقابله ثلاثة أقوال آخر:

الأول: أنه لا يجوز مطلقاً.

الثاني: أنه يجوز في المجمل دون ماله ظاهر غير مراد، كالعام والمطلق.

الثالث: عكس هذا وهو جوازه فيما له ظاهر غير مراد دون المجمل وهو أبعدنا، وإلى هذه الأقوال أشار في (المراقي) بقوله:

تأخيره للاحتياج واقع وبعضنا هو لذاك مانع
وقيل بالمنع بما كالمطلق ثم بعكسه لدى البعض انطق

أما تأخير أصل التبليغ إلى وقت الحاجة، فقال بعض العلماء بجوازه أيضاً، وخالف فيه بعضهم، وقال الفخر الرازي وابن الحاجب والآمدني: لا يجوز تأخير تبليغ القرآن قولاً واحداً لأنه متعبد بتلاوته، ولم يؤخر صلى الله عليه وسلم، تبليغه بخلاف غيره، وقال بعض أهل الأصول: قد يمنع تعجيل التبليغ ويجب تأخيره إلى وقت الحاجة إن كان يخشى من تعجيله مفسدة، قالوا: فلو أمر صلى الله عليه وسلم، بقتال أهل مكة بعد سنة من الهجرة، وجب تأخير تبليغ ذلك للناس، لئلا يستعد العدو إذا علم ويعظم الفساد، ولذلك لما أراد عليه الصلاة والسلام قتالهم قطع الأخبار عنهم حتى دهمهم، وكان ذلك أيسر لغلبتهم وقهرهم، وإلى هذا أشار في (المراقي) بقوله:

وجائز عدم تبليغ له ودرء ما يخشى أبى تعجيله

والضمير في قوله: له عائد إلى الاحتياج في البيت المذكور قبله أي جائز تأخير التبليغ إلى وقت الاحتياج له.

المسألة الرابعة: لا يشترط في البيان أن يعلمه جميع المكلفين الموجودين في وقته، بل يجوز أن يكون بعضهم جاهلاً به ودليله الوقوع، فقد جاءت فاطمة الزهراء والعباس عليهما السلام أبا بكر رضي الله عنه يطلبان ميراثهما من النبي صلى الله عليه وسلم، متمسكين بعموم ﴿يُؤْتِيكَمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ الآية [النساء: ١١] وعموم ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ

وَالْأَقْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ [النساء: ٣٣]، ولم يعلموا أنه ﷺ بيّن أن هذا العموم لا يتناول الأنبياء - صلوات الله عليهم وسلامه - بقوله: «إنا معاصر الأنبياء لا نورث» الحديث، وإلى هذه المسألة أشار في (المراقي) بقوله:

ونسبة الجهل لذي وجود بما يخص من الموجود
وسميته: «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» وهذا أوان الشروع في المقصود.

